تفريغ المحاضرة بعنوان:

أهمية الرجوع إلى العلماء عند النوازل والفتن

ألقاها:

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد اللّه بن عبد الرحيم البخاري

حفظه الله



ضمن فعاليات دورة الإمام مالك بن أنس السلفية السادسة في السنغال

بتاريخ: ٢٢ جمادى الأولى ١٤٤٣ هـ (الموافق ٢٦ ديسمبر ٢٠٢١ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

أيها الإخوة، فقد رغب إليّ الإخوة القائمون على «دورة الإمام مالك بن أنس» بالسنغال المشاركة في كُليمة تذكيرية. نسأل الله جل وعلا أن ينفع الجميع بها وأن يسددنا في الأقوال والأفعال إن ربنا لسميع الدعاء. وهذه الكلمة أو الكُليمة التذكيرية هي عن «**أهمية الرجوع إلى العلماء عند النوازل والفتن**».

والحقيقة أن هذا الموضوع في غاية من الأهمية وأن الحاجة مُلِحّة إليه، خاصة في مثل هذه الأوقات والأزمان التي ظهر وفشا فيها في كثير من المجتمعات المسلمين الجهل بكتاب الله وبسنة رسول الله عليه الصلاه والسلام. وتسبب هذا في الخروج عن سبيل أهل الحق

والهدى والتشرذم والاختلاف والتفرق وركوب بعضهم الأهواء والبدع أو الشهوات وغير ذلك من أصناف الاختلاف. نسأل الله السلامة والعافية.

وظهر الإخلال بهذا الأمر العظيم ظهرت نابتة سوء في بعض المجتمعات كخضراء الدِّمَن. نسأل الله العافية والسلامة. منهم من يقدح في أهل العلم والفضل والسنة والاستقامة والتزهيد فيهم والنيل منهم والوقيعة فيهم في ألوان شتى وضروب مختلفة، إلا أن المـُـؤَدَّى والمراد هو تنفير الناس عن السنة وحملتها بحق.

وهذا الموضوع المهم لا أظن أن لقاءً واحدًا يكفيه في استيعاب مفرداته. لكن حسبي في هذا المقام أن أذكر نفسي أولا، ثم الإخوة ممن يستمع إلينا ثانيا، فيما يتعلق ببعض الأمور المتصلة به. وهذا الموضوع منبثق عن بيان مكانة العلم وفضل أهله وحملته. ولا شك أن الأدلة والنصوص من الوحيين كثيرة دالة على هذه المكانة وعلى فضل حملة العلم وأهله.

وقد ذكرت جملة من هذه النصوص مبينا فضل العلم وفضل أهله في خطبة عن العلم وفي كتابة عنه وفي لقاءات متعددة ومحاضرات عديدة، فأغنى ذلك عن التكرار. لكن قد اختصر لنا الإمام الآجري

رحمه الله بيان مكانة العلماء وبيان مناقبهم. وذلك في كتابه العظيم **«أخلاق العلماء»**.

وهذا الكلام المختصر والمفيد يغني عن كثير ممن يروم أكثر منه. ففيه غنية وكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فقال –رحمه الله– في تقديمة الكتاب:

الْحَمْدُ للَّه الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَبِاللَّهِ أَسْتَعِينُ وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، اخْتَصَّ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ أَحَبَّ، فَهَدَاهُمْ لِلْإِيمَانَ، ثُمَّ اخْتَصَّ مِنْ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ أَحَبَّ، فَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ، فَعَلَّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَفَقَّهَهُمْ فِي الدِّينِ، وَعَلَّمَهُمُ التَّأْوِيلَ وَفَضَّلَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَأَوَانٍ، رَفَعَهُمْ بِالْعِلْمِ وَزَيَّنَهُمْ بِالْحِلْمِ، بِهِمْ يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، وَالْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالضَّارُّ مِنَ النَّافِعِ، وَالْحَسَنُ مِنَ الْقَبِيحِ. فَضْلُهُمْ

عَظِيمٌ، وَخَطَرُهُمْ جَزِيلٌ -أي: عظيم- ، وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقُرَّةُ عَيْنِ الْأَوْلِيَاءِ، الْحِيتَانُ فِي الْبِحَارِ لَهُمْ تَسْتَغْفِرُ، وَالْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا لَهُمْ تَخْضَعُ، وَالْعُلَمَاءُ فِي الْقِيَامَةِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ تَشْفَعُ، مَجَالِسُهُمْ تُفِيدُ الْحِكْمَةَ، وَبِأَعْمَالِهِمْ يَنْزَجِرُ أَهْلُ الْغَفْلَةِ، هُمْ أَفْضَلُ مِنْ الْعُبَّادِ، وَأَعْلَى دَرَجَةً مِنَ الزُّهَّادِ، حَيَاتُهُمْ غَنِيمَةٌ، وَمَوْتُهُمْ مُصِيبَةٌ، يُذَكِّرُونَ الْغَافِلَ، وَيُعَلِّمُونَ الْجَاهِلَ، لَا يُتَوَقَّعُ لَهُمْ بَائِقَةٌ، وَلَا يُخَافُ مِنْهُمْ غَائِلَةٌ، بِحُسْنِ تَأْدِيبِهِمْ يَتَنَازَعُ الْمُطِيعُونَ، وَبِجَمِيلِ مَوْعِظَتِهِمْ يَرْجِعُ الْمُقَصِّرُونَ، جَمِيعُ الْخَلْقِ إِلَى عِلْمِهِمْ مُحْتَاجٌ.

وَالصَّحِيحُ عَلَى مَنْ خَالَفَ بِقَوْلِهِمْ مِحْجَاجٌ. الطَّاعَةُ لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَاجِبَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ لَهُمْ مُحَرَّمَةٌ، مَنْ أَطَاعَهُمْ رَشَدَ، وَمَنْ عَصَاهُمْ عَنَدَ، مَا وَرَدَ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْرٍ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ، حَتَّى وَقَفَ فِيهِ فَبِقَوْلِ الْعُلَمَاءِ يَعْمَلُ، وَعَنْ رَأْيِهِمْ يَصْدُرُ، وَمَا وَرَدَ عَلَى أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُكْمٍ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ فَبِقَوْلِهِمْ يَعْمَلُونَ، وَعَنْ رَأْيِهِمْ يَصْدُرُونَ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَى قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُكْمٍ، فَبِقَوْلِ الْعُلَمَاءِ يَحْكُمُونَ، وَعَلَيْهِ يُعَوِّلُونَ، فَهُمْ سِرَاجُ الْعِبَادِ، وَمَنَارُ الْبِلَادِ، وَقِوَامُ

الْأُمَّةِ، وَيَنابِيعُ الْحِكْمَةِ، هُمْ غَيْظُ الشَّيْطَانِ، بِهِمْ تَحْيَا قُلُوبُ أَهْلِ الْحَقِّ، وَتَمُوتُ قُلُوبُ أَهْلِ الزَّيْغِ، مَثَلُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، إِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ تَحَيَّرُوا، وَإِذَا أَسْفَرَ عَنْهَا الظَّلامُ أَبْصَرُوا

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا دَلَّ عَلى مَا قُلْتَ؟

قِيلَ لَهُ: الْكِتَابُ، ثُمَّ السَّنَّةُ.

فَإِنْ قَالَ: فَاذْكُرْ مِنْهُ، إِذَا مَا سَمِعَهُ الْمُؤْمِنُ، سَارَعَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ اللَّهُ ﷻ، وَرَسُولُهُ ﷺ.

قِيلَ لَهُ: أَمَّا دَلِيلُ الْقُرْآنِ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾

[المجادلة: ١١]

قال: فَوَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ يَرْفَعُهُمْ، ثُمَّ خَصَّ الْعُلَمَاءَ مِنْهُمْ بِفَضْلِ الدَّرَجَاتِ.

وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨]

فَأَعْلَمَ خَلْقَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَخْشَاهُ الْعُلَمَاءُ بِهِ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]

وَقَالَ ﷻ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾

[المائدة: ٦٣]

يُقَالُ: فُقَهَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٤]

قال ؒ بعد ذلك:

وَهَذَا النَّعْتُ وَنَحْوُهُ فِي الْقُرْآنِ، يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الْعُلَمَاءِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَهُمْ أَئِمَّةً لِلْخَلقِ يَقْتَدُونَ بِهِمْ.

ثم أسند ؒ جملة من أقوال السلف في تفسير آيات وردت في الباب، ثم عقد فصلا فقال:

«باب ذكر ما جاءت به السنن والآثار من فضل العلماء في الدنيا والآخرة»

هذه الكليمات أو الكلمات المهمة التي ذكرها الإمام الآجري رحمه الله تبين منزلة العلماء ومكانة أهل العلم والفضل، ودلل على هذا بجملة من الأدلة مما ذكره هنا ثم أورده بعد.

وبنحو هذا أو نحوا منه ذكر الإمام ابن بطة رحمه الله العكبري، ابن بطة رحمه الله في كتابه «إبطال الحيل»، فذكر جملة مهمة في بيان منزلة العلماء ووصفهم، ولماذا تجب أو يجب على الناس طاعة العلماء في ذلك في الحق والمعروف؟

ذكر هنا رحمه الله: «**إن العلماء ورثة الأنبياء**».

وهذا إشارة منه إلى حديث أبي داود وغيره، قوله عليه الصلاة والسلام: «**العلماء ورثة الأنبياء**».

قد تكلم الإمام ابن القيم رحمه الله بكلام في غاية من نفاسة في كتابه «مفتاح دار السعادة» شارحا هذا الحديث ومعلقا عليه. ومما قال فيه رحمه الله: «أن هذا الحديث أمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيرهم وتوقيرهم واجلالهم. فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم».

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ما ذكر من وصفهم وبيان أمرهم أن حياتهم غنيمة، لأن بهم يعرف الحلال والحرام، والصواب من الخطأ، والهدى والرشاد من الضلال والغواية، وذكر أن موتهم مصيبة. لأن بموتهم يذهب علم كثير.

فقد جاء في ترجمة زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من «تهذيب الكمال» أن سعيد ابن المسيب رحمه الله ورضي عنه قال: شهدت جنازة زيد بن ثابت، فلما دُلِّيَ في قبره قال ابن عباس: «من سره أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم. والله لقد دفن اليوم علم كثير». دفن اليوم علم كثير، وذلك لموت زيد رحمه الله وغفر الله له ورضي عنه.

وجاء عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سئل عن علامة هلاك الناس قال: «إذا هلك علماؤهم». نعم، فموتهم مصيبة، موتهم مصيبة.

وذكر من فضائلهم ومناقبهم أنهم يذكرون الغافل. وفي هذا قال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخ كلما لقيك ذكّرك بحظك من الله خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارا».

وقال: «ويعلمون الجاهل».

هذا من وظائفهم ومناقبهم وأعمالهم الجليلة، وفي هذا أسند الإمام عبد الرزاق في «المصنف» بسند صحيح عن إبراهيم النخعي أنه قال: «كانوا إذا رأوا الرجل لا يحسن الصلاة علّموه».

ومما ذكر رحمه الله، قال: «والصحيح على من خالف بقولهم مِحجاج».

وهو الذي يعني يجادل فهو «بقولهم محجاج»، أي يحاج ويجادل بقول أهل العلم ويُرَدُّ عليه قوله ممن لا ينصاع إلى الحق ولا يرغب فيه.

ثم قال: «الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة».

للحديث الذي تقدم (حديث العلماء ورثة الأنبياء) وغيرها، وكما ذكرت آنفا أنهم يدلون الناس إلى الحق والهدى، قال أبو شامة ﵀ في كتابه خطبة كتاب «المؤَمَّل للرد إلى الأمر الأول»: «هكذا كان العلماء هم الأعيان يُسأل عنهم ويبجلون في كل مكان لجمعهم بين العلم والعمل وإعراضهم عن المراء والجدال». انتهى كلامه.

أقول: الطاعة لأهل العلم في المعروف، وأما من أخطأ منهم من أهل الفضل والهدى فتحفظ مكانته، وما أخطأ فيه لا يقبل منه وتحفظ له الكرامة والمكانة والمنزلة، كما هو المأثور عن أئمة العلم كالشافعي ومالك وغيره رحمهم الله تعالى. وسيأتي مزيد بيان حول هذه النقطة بإذن الله، أعني وجوب الطاعة لهم في المعروف.

🕮 وفي قوله ﵀: «مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء»

هذا مقتبس من كلام أبي قلابة ﵀، كما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» وغيره: «مثل العلماء كمثل النجوم التي يُهتدى بها والأعلام التي يُقتدى بها، إذا تغيّبت عنهم تحيروا وإن تركوها ضلوا».

فهذا الكلام العظيم منه ﵀ وهذه الاستدلالات التي ذكرها فيها بيان -كما ذكرت- فيها بيان لمنزلة العلم ومكانة أهله وفضلهم رحمهم الله تعالى وغفر لهم.

والعلماء -بارك الله فيكم- طبقات، والناس في هذا الباب طبقات.

كما قال الإمام الشافعي رحمه الله في «الرسالة»: «والناس في العلم طبقات، موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به.

فحقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارض دون طَلَبِه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه.

فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما عَلِم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة».

❁❁❁

وأقول: بارك الله فيكم،

إن من الآيات العظيمة التي تدل على مكانة العلم والعلماء وضرورة الرجوع إليهم عند نزول الفتن والمدلهمات وطاعتهم في المعروف، قول الله جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ

لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ
ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ
لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء: ٨٢ – ٨٣]

أسند الإمام ابن المنذر رحمه الله في «التفسير» عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ قال: «أولي الفقه في الدين والعقل».

وأسند أيضا رحمه الله عن قتادة رحمه الله أنه قال: ﴿أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ قال: يقول: «إلى علمائهم».

وأسند أيضا عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ قال: «لعلمه الذين يَفحَصُونه عنه ويهمهم ذلك».

وقال الإمام السمعاني رحمه الله كما في «تفسيره»: «يعني ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ما ينبغي أن يُكتم ويعلمون ما ينبغي أن يُفشى، يعني العلماء».

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: «قال الله تعالى مخبرا عن الراسخين في العلم حيث قالوا آمنا به كل من عند ربنا، أي محكمه ومتشابهه حق، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا. والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا، ولهذا مدح الله تعالى الراسخين وذم الزائغين. –إلى أن قال:– وقوله: وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها و يفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة».

ثم ذكر أحاديث رحمه الله من مقدمة مسلم وغيره في ذم هذا الصنيع وهذا الفعل، أعني نشر الكلام قبل التحقق والتبيّن.

وقال شيخ شيوخنا العلامة السعدي رحمه الله في «تفسيره» عند هذه الآية، قال: «هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون

الأمور ويعرفون المصالح وضدها ، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين وسرورا لهم وتحرزًا من أعدائهم ، فعلوا ذلك . وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته ، لم يذيعوهُ . ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ ، أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة .

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية وهي: أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يُولى من هو أهل لذلك وأن يُجعل إلى أهله ولا يُتقدم بين أيديهم ، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ .

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها ، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيُحجم عنه» . انتهى كلامه رحمه الله .

ما أكثر ما ضيع الناس أو كثير من الناس وكثير ممن ينتسب إلى الطلب الوقوف مع هذه النصوص العظيمة وهذه الأقوال النيّرة من بيان أهل العلم وتفسيراتهم لهذه النصوص المباركة ، فلما ابتعدوا عن المنهل العذب حصل ما حصل وتشرذم من تشرذم وهلك من هلك وفارق الحق من فارق بشهوة أو شبهة ، نسأل الله السلامة والعافية .

ثم أنتقل -بارك الله فيكم، نظرا لضيق الوقت- **إلى التمثيل**.

أمثل إلى ما نحن بصدده من أهمية الرجوع إلى أهل العلم، وبخاصة الرجوع إلى أهل العلم لا يقتصر فقط عند المدلهمات، وإنما يتأكد جدا بل ويجب عند نزول الفتن والمدلهمات. أما في عامة أمرك فإنه لا بد من أن تطلب العلم على أهله وأن تأخذ العلم من حملته أصحاب الاعتقاد الصحيح والمِنهاج السليم والفقه في دين الله وفي سنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

فمن الأمثلة في هذا:

۞ **أولا**: ما جاء في «صحيح مسلم» من حديث يحيى ابن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، قال: فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفِّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، قال: فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم، قال: وذكر من شأنهم ويزعمون

أن لا قدر وأن الأمر أُنُف ، قال -أي ابن عمر-: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن القدر» .

ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله عليه الصلاة والسلام ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر -فذكر الحديث الطويل في الإسلام والإيمان والإحسان .

أنت ترى عندما رأى يحيى وصاحبه حميد ما جرى وظهر عندهم بالبصرة من قول معبد الجهني ، وأن الأمر عجيب وغريب ، ذكر لبعضهما أن لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر . هكذا يرجعون إلى أهل العلم ، ولا شك أن في ذِلكم العصر كان أعلم من بقي في ذلكم الوقت هم أصحاب رسولَ الله عليه الصلاة والسلام ممن بقي منهم ، فوُفِّق لنا عبد الله بن عمر إلى آخر هذا الحديث العظيم المبارك .

هكذا سألوا عبد الله بن عمر مع أنهم ذكروا من أمر هؤلاء أنهم يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم (يطلبونه) وذكر من شأنهم -أي

ذكر من أمرهم- ما رآه، لكن لا يعلم حقيقة ما يقولون أهو صواب أم خطأ، فأرجَعوا الأمر إلى أهله وهم أهل العلم، فأرجَعوه إلى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، فقال مقالته العظيمة هذه: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني، إلى آخره».

قد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «كتاب التوحيد»: **باب ما جاء في منكري القدر**، كلام ابن عمر هذا في تبرئه من القدرية. وذكر أنه استدل -أي ابن عمر- بقول النبي عليه الصلاة والسلام في الإيمان وذكر. ثم أورد مسائل الباب وقال: فيه مسائل -وعدّد ومنها قال-:

«**الثامنة**: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

والتاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط». انتهى كلامه.

أي: أن المتبع والمعمول به لدى أهل العلم والفضل من سلف الأمة إذا ما نزل بهم أمر وحدث بهم حادث وجالت شبهة في الأوساط أن يُزيلوها بسؤال أهل العلم، وأن العلماء يردون تلك الشبه التي نفث

بها إبليس في روعهم بما يدل على نقضها من الوحيين، من كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وهذا أمر بين ظاهر.

۞ **المثال الثاني**: في كتاب «الصحيح» للإمام البخاري: **باب الصائم يصبح جنبا**؛ أسند حديث أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن أباه عبد الرحمن أخبر مروان، أن عائشة وأم سلمة رضي الله تعالى عنهما أَخْبرتاه، أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم.

وقال مروان لعبد الرحمن بن الحارث: أقسم بالله، لتُفزِّعن بها أبا هريرة، ومروان يومئذ على المدينة، فقال أبو بكر: فكره ذلك عبد الرحمن ثم قُدِّر لنا أن نجتمع بذي الحليفة وكانت لأبي هريرة هنالك أرض، فقال عبد الرحمن لأبي هريرة: إني ذاكر لك أمرا ولو لا مروان أقسم عليّ فيه لم أذكره لك، فذكر قول عائشة وأم سلمة، فقال: «كذلك حدثني الفضل ابن عباس وهو أعلم»، أي أبو هريرة يقول: كذلك حدثني الفضل ابن عباس وهو أعلم.

وقال همام، وابن عبد الله بن عمر، عن أبي هريرة: كان النبي عليه الصلاة والسلام يأمر بالفطر.

قال: والأول أسند -قاله البخاري-. انتهى.

حديث عائشة وأم سلمة رضي الله تعالى عنهما في «الصحيحين»، لكِن المقصِد أن ما أورده البخاري بهذا اللفظ قوله: «حدثني الفضل بن عباس وهو أعلم».

ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» الفوائدَ المستنبطة من هذا الحديث، وقال:

منها، «فيه الاستثبات في النقل والرجوع في المعاني إلى الأعلم، فإن الشيء إذا نوزع فيه رُدَّ إلى من عنده علمه. هكذا الرجوع إلى أهل العلم».

[۞ **المثال الثالث**:] وفي «الصحيحين» أيضا من حديث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه تمارى هو -أي: ابن عباس- والحر بن قيس بن حصن

الفزاري في صاحب موسى عليه السلام، فقال ابن عباس: هو الخِضر، فمر بهما أُبي بن كعب الأنصاري، فدعاه ابن عباس -أي: ناداه- فقال: «يا أبا الطفيل هلم إلينا فإني قد تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقِيِّه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟» فقال أُبي: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكر الحديث».

ذكر الحافظ ابن بطال في «شرح البخاري»، قال:

فيه جواز التماري في العِلم إذا كان كل واحد يطلب الحقيقة ولم يكن متعنِّتا.

يطلب الحقيقة ويطلب الحق، ليس في هذا الجدال مراء ولا انتصار للنفس ولا المغالبة، وليس ثمة تعنت وتشبُّث بالرأي دون بينة، إنما كلاهما يبحث عن الحق ينشده، هذا أبدى ما عنده وهذا أبدى ما عنده.

ثم قال: «وفيه الرجوع إلى قول أهل العلم عند التنازع».

وفيه الرجوع إلى قول أهل العلم عند التنازع، عند وقوع مثل هذا الأمر.

ومثله قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح»، ونقل الحافظ العيني في «عمدة القاري» كلام ابن بطال مقرا له، رحمة الله على الجميع.

۞ **<u>المثال الرابع</u>**: ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه قال: اختلف رجلان أو امترَيا، رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أُسِّس على التقوى (اختلفا في تعيين المسجد الذي أسِّس على التقوى). قال الخدري: «هو مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وقال العمري: «هو مسجد قباء». قال: فأتيا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألاه عن ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «**هو هذا المسجد لمسجد رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ثم قال: «**في ذاك خير كثير**، -يعني مسجد قباء-».

هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد وهذا لفظه، وهو عند الإمام الترمذي بنحوه، والنسائي، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن حبان في «الصحيح»، والحاكم في «المستدرك»، قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه في موطن آخر -أعني الحاكم- وقال الذهبي: إسناده جيد؛

وصححه العلامة الألباني رحمه الله ورحم الله الجميع في «صحيح الترغيب والترهيب». والحديث أصله في مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه دون ذكر الخلاف.

لكن قد يقول قائل: ظاهر هذا الحديث متعارِض مع ظاهر قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [التوبة: ١٠٨] وما ورد في سبب نزولها من أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى الذي أُمر النبي – عليه الصلاة والسلام – بالصلاة فيه هو مسجد قباء، كما قاله جمع من السلف. وكذلك ما جاء في أن الرجال الذين يحبون أن يتطهروا هم أهل قباء.

وقد جمع أهل العلم – كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير، وابن حجر، وغيرهم من أهل العلم – أن لا منافاة بين ما ورد في سبب نزول الآية وبين الحديث هذا – حديث الباب الذي ذكرناه حديث أبي سعيد – فإذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأَولى.

الشاهد: أنه عند ما وقع الاختلاف والامتراء رجعا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فسألاه عن ذلك ليرفع عنهما هذا الخلاف وهذا الاختلاف، فأرجَعوا الأمر إلى أهله.



[۞ **المثال الخامس**:] وفي «صحيح مسلم» - **وهو خامس الأمثلة** - من حديث أبي موسى قال: اختلف في ذلك رهط من المهاجرين والأنصار. فقال الأنصَاريون: لا يجب الغسل إلا من الدَّفق أو من الماء. وقال المهاجرون: بل إذا خالط فقد وجب الغسل، فقال أبو موسى: «فأنا أشفيكم من ذلك»، -أي الخلاف الذي جرى بين رهط المهاجرين والأنصار- قال: فقمت فاستأذنت على عائشة فأذن لي، فقلت لها: «يا أماه، -أو: يا أم المؤمنين- إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أستحييكِ»، فقالت: «لا تستحي أن تسألني عما كنت سائلا عنه أمك التي ولدتك، فإنما أنا أمك». قلت: «فما يوجب الغسل؟» قالت: «على الخبير سقَطْت. قال رسول الله ﷺ: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختانَ فقد وجب الغسل**».

هنا وقع الاختلاف أووقع هذا الأمر والاختلاف بين رهط المهاجرين والأنصار، فانبرى أبو موسى رضي الله عنه بقوله: «أن أَشفيكم من ذلك»، أي آتيكم بشفاء هذا الاختلاف وما يبيّنه ويرفعه عنكم، يبينه لكم ويرفعه عنكم، وهكذا العلم يشفي.

ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله في نونيته:

والجهل داء قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان

نص من كتاب ومن سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني

فجاء فسأل أم المؤمنين – الصديقة بنت الصديق – رضي الله تعالى عنها وأرضاها، فسألها فأجابته ابتداءا بقولها: «عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ» وهذا مثل تقوله العرب على من سأل من يعرف.

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم: «قَوْلُهَا «عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ» مَعْنَاهُ: صَادَفْتَ خَبِيرًا بِحَقِيقَةِ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ عَارِفًا بِخَفِيِّهِ وَجَلِيِّهِ حَاذِقًا فِيهِ».

وقال في موطن آخر من «شرح مسلم» عند ما أورد هذه الجملة ونحوها، قال: «وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالذَّهَابِ إِلَى الْفُضَلَاءِ حَيْثُ كَانُوا». انتهى كلامه رحمه الله.

والحقيقة أيها الإخوة ، أن الامثلة في الرجوع إلى أهل العلم عند وقوع نازلة أو الاشتباه أو وجود شبهة كثيرة جدا في عهد السلف الأول ومن جاء بعدهم .

والأمثلة عديدة من سؤالات الإمام ابن القيم لشيخه شيخ الإسلام – رحمه الله وغفر الله لهما – ومن سؤالات أهل العلم وتلامذة الإمام أحمد شيخهم ، إمام أهل السنة والجماعة – رحمهم الله أجمعين – فيما ينزل عليهم ويجِدُّ من أمر يستفتونه فيه ، إلى غير ذلك . لكن في هذا التمثيل وهذا القدر كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

❁❁❁

وأختم بكلمة العلامة الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النافع المفيد «الاعتصام» لما تكلم وعلق على حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما في «الصحيحين»: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا» ، الحديث .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: تَدَبَّروا هَذَا الْحَديث فإنَّه يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُؤْتَى النَّاسُ قَطُّ مِنْ قِبَلِ عُلَمَائِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُؤْتَوْنَ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ

عُلَمَاؤُهُمْ أَفْتَى مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ. فَيُؤْتَى النَّاسُ مِنْ قِبَلِه، وَقَدْ صُرِّفَ هَذَا الْمَعْنَى تَصْرِيفًا، فَقِيلَ: مَا خَانَ أَمِينٌ قَطُّ وَلَكِنَّهُ ائْتُمِنَ غَيْرُ أَمِينٍ فَخَانَ. فقَالَ نَحْنُ نَقُولُ: مَا ابْتَدَعَ عَالِمٌ قَطُّ، وَلَكِنَّهُ اسْتُفْتِيَ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ فَضَلَّ وَأَضَلَّ». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

نسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد في الدارين وأن يفقهنا في الدين، وأن يلحقنا بالصالحين غير مفتونين وأن يثبتنا على الإسلام والسنة حتى نلقاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

